

من صور الإيمان بالواجب

قسم اللغة العربية – كلية الآداب
جامعة الخرطوم

أ.د. عبد الله محمد أحمد

لكل إنسان عشقٌ في هذه الحياة ومن عشق عمله وأحبّه وأتقنه كان حقيقاً بأن يقفَ بين يدي الملوك وأعظم عشق في هذه دنيا هو عشق الكتاب. وقد عاصرتُ في سنيّ خدمتي للجامعة أمناءً للمكتبة كانوا عوناً صادقاً للباحثين والدارسين في مضمار البحث العلمي. وها أنذا بصدد الحديث هاهنا عن أحد أبرز هؤلاء الأمناء الذين كنت أستعين بهم في البحث العلمي كما يستعين بهم كثيرون غيري خاصةً في مكتبة السودان. أنشئت مكتبة السودان وهي فرعٌ من المكتبة الأم في عام 1960 لتُضمَّ كلَّ ما كُتب عن السودان المعرفة كما تضمَّ كلَّ ما صنّف فيه الكتاب السودانيون في شتى ضروب المعرفة وهذه المكتبة على ثلاثة أقسام: قسمٌ للكتب - وقسمٌ للدوريات - وثالثٌ للرسائل الجامعية. تقع المكتبة في إحدى المباني العتيقة ممّا خلفه المستعمر وهي من المباني التي كأنما يزيدّها تعاقبُ الأيام سحراً على سحر. فإذا دلفت من باب المبنى الرئيسي أخذت ببصرك دوحةً غناءً مثمرةً ضاربةً بجذورها في الأرض وهي تحنو بظلالها على المدخل، وربّما هبّ نسيمٌ ذو دلال فحرّك أغصانها فداعبت تلك الجدران العتيقة، فأعجب لقصة حبّ بين الشجر والحجر تدوم على مرّ الأيام. وفي الجانب الجنوبيّ من المدخل عتبات درج قديم تُفضي بك إلى بهو كبير سقفه مرتفع صُفّت فيه مقاعدٌ يجلس عليها الدارسون وعليه مهابةٌ إذ جلست فيه أجيالٌ من العلماء الأفذاذ على مرّ العقود المتعاقبة فإذا نظرت بعين الخيال رأيت عليها رجالاً من أبناء الوطن كانوا ملء السمع والبصر بأيديهم الطروس والأقلام يكتبون، طوتهم المنية ولكن بقيت آثارهم الدالة عليهم. وعلى يسارك باب يُفضي بك إلى قاعةٍ صُفّت فيها أرففٌ معدنيّة تحوي كلَّ ما كُتب عن السودان أو ما جادت به قرائح علمائه فهو مكانٌ يحوي إرث هذا الوطن فكانتُما اجتمع عطرُ الدنيا كلّها فيه. فإذا طفت بالمكان صادفت كهلاً جميلَ المحيا وقور السمت ويُد الخطو كثير الصمت باسم الثغر في غير تكلف، لا تحس بوجوده حتى تراه فشعاره السكينة فكأنّه عابدٌ في محرابه أو راهبٌ في صومعته فإذا حيّته ردّ التحية في أدب جمّ فإذا سألته عن كتاب أو مجلة أو رسالة التمعت عيناه ولم يجب وانصرف عنك ثم ما لبث أن عاد

وفي يده ما تريد. ذلك هو الأستاذ عباس الزين. حدّثني العالمُ الجليل بروفسير إبراهيم الزين صغيرون عن تفانيه في عمله وأخبرني أنّ اسمه معروفٌ لكلِّ الدارسين الأجانب الذين يؤمُّون المكتبة ليطلّعو على كلّ آثاره من علم كُتبت عن السودان وأكثر الزائرين من المملكة المتحدة فهو يعرفُ موضعَ كلّ كتابٍ أو رسالةٍ أو مجلةٍ في المكتبة فكأنَّ عقله أرشيفٌ ضخمٌ يضمُّ كلّ ما حوته المكتبة. فطالما سَفَرَ بين الكتب والدارسين وحقيق بالذكر أنه كان أحد الذين وضع الفهارس الفنية التي تضمُّ كلّ ما حوته تلك المكتبة من آثار تيسيراً على الدارسين. لا تجده خالياً من العمل أبداً فهو في حركةٍ دائبة؛ يُعيد الكتب إلى مواضعها من الرفوف أو يُعيد ترتيبها ويتفقّد ما يحتاج إلى صيانةٍ منها أو إعادة تغليف. يقصده المؤرخ والأديب والباحث في التراث الديني والاجتماعي وغيره في شتّى فنون المعرفة. أُحيل للتقاعد في 1960م اطّلع على الخطاب في أسى ولكن ذلك الخطاب لم يكن يعني له شيئاً سوى إيقاف ذلك الراتب النزر ولكنه لن يضع خاتمةً لرحلة العشق والوفاء فداوم على الحضور إلى المكتبة كدأبه كلّ يوم يخدم الدارسين دون أن ينال على ذلك أجراً فحالُه كحال العبد الذي أعتقه سيّده فأبى إلا أن يقيمَ معه يخدمه كدأبه فصار عبد عتيق بعد أن كان عبد رِقٍّ فهو كما قال الشاعر.

عبد رِقٍّ ما حنَّ يومً لعتيق
لو تخلّيت عنه ما خلاكَا

ودام على العهد حتى اختارَه الله تعالى لجواره في الثامن من رمضان 1442هـ الموافق الخامس من أيّار 2020. وقد كان عَمِلَ بالمكتبة من عام 1968، فاكتملت له بذلك ما يزيد عن نصف قرن في العمل بالمكتبة في أقسامها المختلفة وله في خدمتها سيرة عطرة لا يختلف عليها اثنان. يعزُّ عليّ أن أدخل مكتبة السودان فأجد موضعه منها خالياً فمكأنه منها مكان القطب من الرّحا. وهو مثالٌ نادر للوفاء والتفاني في أداء الواجب وفي عشقه للكتاب فما ذُكر عباس - طيّب الله ثراه إلا وذكر الكتاب. يهونُ عنده النصب ويتناسى الأسقام في سبيل أداء الواجب. وقد كان اسمه على لسان كلّ دارس وباحثٍ في شئون السودان داخل السودان وخارجه. جميل الفعال نزرُ المَقال قليلُ المِثال لا يعرفُ الكلال ولا يعتريه الملل في سبيل خدمة العلم وأهل العلم لا يرجو جزاءً ولا ينتظرُ ثناءً. كان له دورٌ كبير في خدمة البحث العلمي لأنَّ الباحث يحتاجُ إلى الكتاب ويحتاج إلى أمينٍ عارف بالمكتبة، وما الجامعةُ إلا مكتبة ومن لديه مكتبةٌ في بيته فليديه جامعة. وقد كانت بروفسير فدوى عبد الرحمن على طه مديرة الجامعة بسبيل تكريمه من باب الوفاء ولكنَّ المنية كانت أعجلَ من ذلك رحم الله تعالى الأستاذ عباس الزين وأنزل على قبره من شأبيب رحمته ما تخضّر له تربةُ الجَدَثِ وتُضيء له ظلماتُ القبر.